موقف الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح من الخلافات النحوية (المدارس النحوية)

د. لعشريس عباس

المركز الجامعي مغنية

الملخص :

يحاول هذا البحث أن يعالج مسألة في غاية الأهمية ، وهي مسألة المدارس النحوية العربية وبعض خصائصها ، وذلك انطلاقا من ردود الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح على بعض المستشرقين ك فايل" و "ماسينيون" ومن تبعهم من الدارسين العرب ، الذين قالوا أنّه لا وجود لمدرسة كوفية في النحو ، وأن المدرسة النحوية الكوفية غالت في الاحتجاج بالشاذ ، وأن البصريين غلبوا القياس على السماع ، ليخرج البحث بتخطيء هؤلاء كلهم ، وأن التراث العربي له مدرسة بصرية وكوفية ، وأنّ لكل منهما منهجا خاصا ابتعد عن الاحتجاج بالشاذ ولم يغلب القياس .

الكلمات المفتاحية :المدرسة البصرية ، المدرسة الكوفية ، السماع ، القياس ، الشاذ ، الاتساع في الرواية .

Abstract ;

This research tries to address a very important issue, namely the question of Arab grammar schools and some of their characteristics, based on the responses of Mr. Abdul Rahman Haj Saleh to some Orientalists such as “ weil”"and" Massinion "and their followers of Arab scholars, who said that there is no Kufic school In grammar, the Kufic grammar school overstated the abnormal protest, and that the Baasra school in grammar overcame the measurement”al kias” on hearing” al samaae”, to come out by mistaking all of them, and that the Arab heritage has a basraa and kufic school in grammar, and that each has a special approach away from protesting and specific characteristics

Key words ; the Basra grammar school, , the Kufic grammar school, al kiaas, alsammae

مقدمة :

يجب أن نعلم أن الخلاف من السّنن الكونية فالبيئة وطريقة التفكير تساعد في تنمية هذا الخلاف بين بني البشر، ولا يجب أن ننظر الى الخلاف أنّه ظاهرة غير سليمة، بل هو ظاهرة سلمية ودليل على النضوج الفكري والاستقلالية، وعدم الخلاف يحيل الى الانغلاق وعدم القدرة على الابتكار. كما يجب أن نشير أنّ الاختلاف ليس خاصا بالأصول بل هو متعلق بما ينجر عنها من فروع .

وقد ارتبط الخلاف بصفة خاصة بالدراسة النحوية واللّغوية ، كما اختص بعدة علوم مثل التفسير، الفقه. ومن اشهر الخلاف الذي ظهر؛ الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين ، الذي ذكرته لنا المصادر العربية ، والعجيب في الأمر أنّا وجدنا بعض المستشرقين ينفون كل هذه الارث الذي نعتز به ، ويشككون في وجود هذا الخلاف ،بل ويشككون في وجود مدرسة نحوية للكوفة ، وقد ذهب بعض الدارسين العرب هذا المذهب ، وقد ألفينا الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح يرد على هؤلاء ردا علميا مقنعا ، أُعجبنا به أيّما اعجاب . ومن هنا تأتي قيمة هذا العمل الذي وسمناه " موقف الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح من المدارس النحوي" ، وكان حقه(العنوان) أن يكون ردود الاستاذ عبد الرحمن الحاج على شبهات المستشرقين حول وجود المدارس النحوية ، إلا اننا آثرنا العنوان الأول ، لأنه يجمع بين الردود والدفاع وبين واقع المدارس النحوية . وكان غرضنا من هذا العمل ايراد شبهات المستشرقين ثم الرّد عليها وإبطالها انطلاقا من كتاب الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح "كتاب منطق العرب في

علوم اللّسان" .وقد اعتمدنا في هذا البحث على المنهج الوصفي وبعض الادوات الاجرائية كالتحليل والموازنة، واعتمدنا ايضا على المنهج التاريخي وذلك بالعودة لتاريخ البصرة والكوفة النحوي .

وقد انطلقنا في البحث من فرضية أنّ الاختلاف سنة كونية معرفين للمصطلح، بعد ذلك انتقالنا الى التعريف بالمدرستين البصرية والكوفية وخصائص كل مدرسة نحوية ، حتى وصلنا إلى المسالة المهمة في البحث، وهي ردود الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح على شبهات المستشرقين ، وقد ساعدنا في هذا أننا درّسنا مادة اصول النحو ما يزيد على العقد ، لنخرج في الأخير ببعض النتائج منها أن المستشرقين وعلى رأسهم "فايل" و"ماسينيون" وقعوا في أخطاء منهجية وأنهم لم يتثبتوا في اصدار الاحكام ، وقد كان ردّ الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح قاسيا فقد وصفهم بالجهل .

وهنا اعترف بالصعوبة التي واجهتني وهي سعة اطلاع الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح على التراث العربي ، فلم استطع ان اعود الى جميع الكتب التي اشار اليها ، وبخاصة كتاب الاستاذ محمد خير حلواني " البصرة والكوفة كتاب الانصاف .

1-مفهوم الخلاف :

أ- لغة: يقول ابن فارس " (خ ل ف): أصول ثلاثة: شيء يجيء بعد شيء ويقوم مقامه، و خلاف قدّام،

و التغيير، والأصل الأول هو المقصود، اختلف الناس في كذا، والناس خُلفه: أي مختلفون لأن كلّ واحدٍ ينّحي قول صاحبه ويقيم نفسه مقام الذي نجاه، وهو معنى الخلاف ضدَّ المواقف"[1].

وجاء في اللّسان "تخالف الأمران واختلفا، لم يتفقا وكل مالم يتساوَ فقد تخالف واختلف

ومن هنا فالخلاف يعني عدم الموافقة، هو أعم من الضد لأنّ كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدّين [2].

اصطلاحا:

يقول الجرجاني: "منازعة تجري بين المتعارضين لرفع حق أو ابطال باطل "[3]، ويقول الراغب الأصفهاني: "الخلاف والاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحدٍ طريق غير الطريق الأول في فعل أو حالة "[4].فالخلاف في الصطلاح إذن؛ يعني عدم الاتفاق في الرأي ، سواء كان الرأي في مسائل اللغة ، أم مسائل الفقه أم أي مسألة من المسائل

ومن هنا وجدنا البعض يستعمل مصطلح " الخلاف" والبعض الآخر يستعمل مصطلح " الاختلاف" ، فهل بينهما فرق؟.

هناك من يستعمل لفظة الخلاف بمعنى الاختلاف وهي ضد الاتفاق من ذلك ابن عقيل والجرجاني.

وقد فرّق الكفوي بين الخلاف والاختلاف بقوله:" والاختلاف هو أن يكون الطريق مختلفا والمقصود واحدٌ، والخلاف كلاهما مختلف فاستند الى دليله، وضده الخلاف، والاختلاف رحمة والخلاف بدعة"[5].

وقد يمكن الجمع بين القولين فالاختلاف هو التغاير، والخلاف انتصار في المسائل.

2-أسباب الاختلاف:

لا يوجد سبب واحد للخلاف ، فهو يرجع إلى عدة أسباب: منها الفطرة الانسانية فالإنسان مجبول على الخلاف و المخالفة في الأمر ، ومنها طبيعة اللّغة أو ما يعتري الناطقين بها من عيوب في النطق أو بسب طرائقهم في الكلام ، فقد حُكيَ أن المكيين ينبرون و أن غيرهم لا ينبرون ، كما حُكي أن أهل العراق يشيع عندهم الادغام ، وأهل الحجاز لا يدغمون في كلامهم . وقد يكون بسبب طبيعة الكون والحياة فلكل قوم طريقتهم في العيش ، والبعض يرجع الاسباب للعوامل السياسية؛ فالسياسة تقوم بدورها في بث الخلاف بين البشر بل بين المجتمع الواحد ، إضافة إلى العوامل الفكرية و الثقافية و الجغرافية التي تزيد في أسباب الخلاف .

3-بداية الاختلاف النحوي :

الخلاف النحوي الذي يعينه الدّارسون هو الاختلاف بين البصريين والكوفيين ويجب أن يُعلم أنَّ النحو البصري سبق نحو الكوفة بحوالي 100 عام، وأنَّ الطبقة الثالثة البصرية كانت تقابل الطبقة الأولى من الكوفيين ، وبدأ الخلاف مباشرة بين الطبقة الرابعة البصرية ممثلة في سيبويه(-180ه)، و الطبقة الثانية الكوفية ممثلة في الكسائي(190ه)، حيث ظهر بين العالمين الجليلين خلاف كبير [6].

يرى الأستاذ شوقي ضيف أن أول خلاف بين المدرستين، ظهر أولاً في المدرسة البصرية وذلك عند مخالفة الأخفش(-215ه) لشيخه سيبويه، يقول: "إنَّ أبواب الخلاف فتحت على يدي الأخفش تلميذ سيبويه...خالف أستاذه في كثير من المسائل وحمل عليه، وحمل عنه الكوفيون، ومضوا يتسعون فيه، فتكونت مدرستهم، والذي فتح للفراء والكساني أبواب الخلاف مع سيبويه والخليل على مصرعيهما "[7] ،ومما خالف فيه الأخفش شيخه سيبويه حروف الاعراب في المثنى وجمع المذكر السالم، يقول الأنباري: "ذهب سيبويه إلى أنَّ "الألف والواو والياء" هي حروف إعراب، وذهب أبو الحسن الأخفش وأبو العبّاس المبرد ومن تبعهما أنهّا تدّل على الاعراب.... وليست بإعراب" [8]، وبهذا يكون الأخفش أول من فتح هذا الباب، ويمكن أن نضيف أنَّ اختلاف الأخذ عن الخليل ويونس داخل الكتاب هو أيضاً ومن أوليات الخلاف.

ومن هنا نقول بأن بدايات الخلافات ظهرت:

أولاً: داخل المذهب البصري بين ثنايا الكتاب (كتاب سيبويه)، اختلاف الأخذ بين الخليل ويونس بن حبيب، فقد رجّح سيبويه آراء يونس وترك آراء الخليل أحياناً أخرى، وأخذ آراء الخليل وترك آراء يونس في مواضع .

ثانياً: مخالفة كل من الأخفش (-215ه)والمبرد(286ه) لسيبويه أيضاً ضمن المدرسة الواحدة.

ثالثاً: الخلاف والمناظرة التي وقعت بين سيبويه و الكسائي تعدّ البداية الأولى للخلاف بين المدرستين.

4- بيئة الخلاف:

أ- نشأة مدرسة البصرة:

مدينة البصرة، من مدن العراق ، تحتل موقعا استراتيجيا، يصب فيها نهري دجلة والفرات ، الأمر الذي مكنها من الاختلاط بغير العرب ، افتتحت على يد الخليفة الثاني ؛ عمربن الخطاب رضي الله عنه، على يد القائد عتبة بن غزوان رضي الله عنه، حوالي سنة 14ه أو 16 ه ،

فهاجرت إليها القبائل العربية بعد انتزاعها من الفرس [9].

حدث بها احتكاك بين العرب المسلمين و الأعاجم من الفرس والهند واليونان ، و اتقت الديانات بها

أصبحت الصرة حاضرة علمية في عهد الأمويين يؤمها الوافدون، وتأسس بها الجامع الكبير (مسجد البصرة) كانت تعقد فيه الحلقات العلمية و الدروس ألدبية و المواعظ ، ، وتأسس بها سوق المربد الذي كان يضاهي سوق عكاظ في الجاهلية [10] ، لما افتتحت تولى امارتها ، الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ، (17هـ إلى 29هـ)، وكان من القراء وكان ومن معه من الصحابة يعلمون الناس القرآن ، يقول أبو رجاء العطاردي " كان أبو موسى الاشعري يطوف علينا بمسجد البصرة ، فنقعد حلقا ، فكأني أنظر إليه بين بردين أبيضين يقرئني القرآن"[11]، وهكذا بدأت الحركة العلمي ، وانتهت ألى بناء صرح علمي قام به مجموعة من العلماء في مختلف العلوم وبخاصة علم العربية (النحو) .

يقول محمد بن سلام الجمحي عن نشأة النحو بالبصرة وتقدمها : "وكان لأهل البصرة في العربية قدمة و بالنحو ولغات العرب عناية."[12] ، ويشير الطنطاوي إلى هذا أيضا فيقول: "هذا هو الطور الذي استأثرت به البصرة صاحبة الفضل في وضعه و تعهده في نشأته"[13]، فنشأة المدرسة البصرية أو النحو البصري اقترنت بنشأة النحو العربي وظهور بوادر النحو وأولياته كان بحد ذاته ظهور بوادر المدرسة البصرية .

ويعد الخليل مؤسس النحو العربي والنحو البصري فعلى يده بلغ النحو النضج والكمال تقول خديجة الحديثي: "تمت على يد الخليل دراسة النحو العربي وبلغت مرحلة النضج والكمال على يديه."[14]،ويؤكد هذا ايضا شوقي ضيف بقوله:" وواضح من كل ما قدمناه أن الخليل يعد بحق واضع النحو العربي في صورته المركبة سواء من حيث عوامله ومعمولاته الظاهرة و المقدرة أو من حيث ما يجري فيه من شواهد و علل وأقيسة "[15]

ب -نشأة مدرسة الكوفة :

_الكوفة افتتحت بعد ثلاثة أشهر بعد البصرة في حوالي 17 هـ، على يد الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاس ، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ، تقع في الضفة العربية ، لسواد الفرات ، اسمها القديم " الرملة الحمراء " و هي رمال حمرا تخالطها حصباء . سكنها العرب المسلمون الفاتحون و الاعاجم و القبط [16].

شابهت الحياة الفكرية في الكوفة مثيلتها في البصرة ، إلا أن "اهتمامهم بالقراءات القرآنية و روايتها رواية دقيقة ، مما جعلها تحظى بمذهب فقهي هو مذهب الإمام أبو حنيفة ، وبثلاثة من القراء السبعة الذين شاعت قراءاتهم في العالم العربي، وهم عاصم وحمزة والكسائي وعنيت بجانب ذلك عناية واسعة برواية الاشعار القديمة وصنعة دوازوين الشعر حتى ليقول أبو الطيب اللغوي : الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن اكثر مصنوع ومنسوب "[17] . ولعل هذا الأمر ، أي الاهتمام برواية الشعر هو الذي جعل البعض من الدارسين (مشتشرقين وعرب) يتحامل عليهم كما سنبّين .

و مدرسة الكوفة تعتبر حديثة العهد إذا قيست بمدرسة البصرة التي سبقتها بفترة ليست بالقصيرة ، تصل إلى مائة عام ، و من الصعب أن تحدد فترة ز منية تكون حدا فاصلا بين المدرستين ، فعلى تذكر بعض المصادر أن الاتصالات كانت مستمرة بين أعلام المدرستين فمثلا الكسائي الكوفي كان تلميذا ليونس بن حبيب ومن قبله الخليل بن أحمد الفراهيدي و كان التجاوب مستمرا أيضا فما عرف شيء في الكوفة إلّا وجدت آثاره في البصرة[18] وعادة تذكر كتب التراجم أوليَّة للنحو الكوفي مُجَسَّدة في أبي جعفر الرؤاسي.

أما الرؤاسي فيقول مترجموه :"إ نه أخذ النحو عن عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء، وعاد إلى الكوفة فتلمذ عليه الكسائي، وألف لتلاميذه كتابًا في النحو سماه (الفيصل)، وكان يزعم أن كل ما في كتاب سيبويه من قوله: (وقال الكوفي) إنما يعنيه، غير أن الكتاب يخلو خلوًا تامًّا من هذه الكلمة، وإن كان قد ذكر أهل الكوفة مع بعض القراءات في ثلاثة مواضع"[19] ، ويتابع قائلًا: إنما يبدأ النحو الكوفي بدءًا حقيقيًّا بالكسائي وتلميذه الفراء، فهما اللذان رسَمَا صورة هذا النحو ووضَعَا أسسه وأصوله، وأعدَّا له بحذقهما وفطنتهما لتكون له خواصُّه التي يستقل بها عن النحو البصري، مرتبين لمقدماته ومدققين في قواعده، ومتخذين له الأسباب التي ترفع بنيانه"[20] .

ج- خصائص المدرسة البصرية:

لقد ذكر لنا الكثير من الدارسين بعض الخصائص من النحو البصري ، نحاول اجمالها في ما يلي :

1- الاعتماد على كلام العرب الموثوق بعربيتهم وفصاحتهم.

2- الاعتماد على المطّرد من كلام العرب، عدم الاهتمام بالموضوع.

3- الاعتماد على القياس.

4- الاعتماد على التعليل والتأويل، الأخذ عن العرب الخلصّ.[21]

د -خصائص المدرسة الكوفية:

ومن خصائص الكوفيين :

- الاتساع في الرّواية، وهذا أشار أليه المتقدمون أنفسهم كأبي الطيب اللغوي .

- القياس على الشاد يقول ابن درستويه:" كان الكساني يسمع الشاد الذي لا يجوز الاَّ في الضرورة فيجعله أصلاً يقيس عليه فأفسد بذلك النحو"[22].

- التوسع في القياس لأنّهم توسعوا في الرّواية وقاسوا على الشاذ والنادر.

- توسعوا في الأخذ بالقراءات الشاذة

- اعتمدوا كثيرا على التعليل

- استشهدوا أكثر بالقراءات لوجود القراء: الكساني، حمزة، عاصم

5- ردود الشبهات و الاباطيل حول المدرستين

لقد أثار بعض الدارسين المستشرقين وبعض من تبعهم من الدارسين العرب بعض الشبه و الأباطيل حول الدّرس النحوي القديم ، بل ذهب الكثير منهم ألى القول بعدم وجود مدارس نحوية ، وقالوا أيضا بأن المدرسة الكوفي اعتمدت على الشاذ في وضع قواعدها ، وما كان مبنيا على الشاذ فإنّه لا يستقيم ، وغيرها من الشّبهات التي لا أصل لها ، وقد قام الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح بردها مشكورا وفق منهج علمي، كما أنّه

بين بعض الحقائق والتي تتمثل في جهل بعض المستشرقين وعد الاطلاع الكافي على التراث العربي ، وإليك هذه الشبه والردود .

أ- الشبهة الأولى:

تشكيك بعض الدارسين في وجود خلاف بين المدرستين، أو بخاصة عدم وجود تراث نحوي كوفي، وقد تبنى المستشرق فايل " " weil "و لو كونت" loconte "هذا الرأي ،يقول الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح متحدثا عن "فايل" " فهو ينكر أن يكون للكوفة تراث علمي في النحو، ولا ينكر أن يكون وجد اتباع في النحو للفراء "[23] و يستشهد بقوله في كتاب الانصاف :" إن البغداديين هم المسؤولون الحقيقيون لأسطورة الخلاف بين البصرة والكوفة وبالتالي هم الذين اختلقوا المدرستين اللّتين تحملان هذين الاسمين ، والذي جعلهم يذهبون هذا المذهب أيضاً تلقيب الكوفيين في كتب النحو تارة بالكوفيين وتارة أخرى بالبغداديين ، الأمر الذي دعاهم الى الشك "[24]، ثم اردف الاستاذ عبد الرحمان حاج صالح أن "لوكونت" قد تبعه في هذا الرأي واستشهد بقوله من خلال كتابه" ابن قتيبة وآثاره" قائلا:"إن كل هذه الأدلة تؤدي بالضرورة إلى الشك في وجود " مدارس " أو تراث متواصل ، يمكن أن يعرف له مكان جغرافي في زمن ابن قتيبة ... وليس الكسائي و الفراء بالنسبة إلينا إلا اسمين ، ويستحيل أن تكون لدينا فكرة عن مذاهبهما النحوية "[25] ، ومن خلال ما ذكره الاستاذ عبد الرحمان حاج صالح فإن هذين المستشرقين ينكران وجود مدرسة نحوية تسمى الكوفة ، جملة و تفصيلا ، ويشككان في وجود عالمين اسمهخما الكسائي و الفراء ، وإن سلما بوجودهما فهما ينكران مذهبهما النحوي ،وقد قام الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح - رحمه الله - برد منهجي علمي واضح على هذه الشبهة حيث ألفيناه يرد بما يأتي :

1- تأكيد وجود هذا الاصطلاح في كتاب سيبويه (الكوفيون)، ويستشهد بقول سيبويه في الكتاب "ولا ينبغي في قول الكوفيين ألا فَيْعِلاً بكسر العين لأنهم يزعمون أنه فيعَل ، وأنه محدود على أصله "[26]، وهنا اشارة من سيبويه الى (الكوفيين) ومعناه وجود رأي للكوفيين في (فيْعل) فيزمن سيبويه ، والخلاف هنا حول(وزن ميّت وسيد: فيعِل ام فيعَل)، مشهور ذكرته كتب النحو.

2- إطلاق لفظ البغدادين على الكوفيين بعد انتقالهم ، وقد احتج في هذا بقول الأخفش تلميذ سيبويه: "والبغداديون يرخمون عمر "[27]، ليبيّن من خلاله أن اصطلاح البغدادين هو مصطلح اطلق على الكوفيين بعد وفاة سيبويه وبعد انتقال الحكم الى بغداد يقول الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح :" وشاعت تسميتهم بالبغداديين في زمن الأخفش أي في أواخر القرن الثاني و النصف الأول من القرن الثالث"[28] ، و يؤكد الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح على رأيه هذا بمجموعة من الشواهد ؛ منها ما جاء عن المازني :" ومن كلام أهل بغداد الكسائي والفرّاء"[29]، ويحتج بقول الجاحظ :" .. مع من جالست من رواة البغدادين ...."[30]، ويذهب الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح ليغرق في الأدلة التي تبين وجود مصطلح الكوفيين ، ثم انتقال هذا المصطلح الى البغداديين" ليقول في الأخير :" فهذا ابن السراج في كتاب الأصول ينسب

الكسائي و الفراء وأصحابهما في واحد وثلاثين مرة الى الكوفة ، وفي سبع مرات إلى بغداد "[31]، ومن هنا يؤكد الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح على أن" لفظ " البغدادين "يقصد به " الكوفيون" ويعني " الكسائي والفراء وأصحابهما" ،وهو هنا يدحض الفكرة التي جاء بها المستشرق فايل ولوكونت، حيث الفيناه يقول :" وفيما يخص ما جاء في كتاب معاني القرآن وكتب أخرى من اختلاف عميق يفترق به الفراء و الكسائي عمّا تميّز به البصريون ، فهو واضح جدا ، ولا يمكن أن ينكر ذلك إلا من لم يطلع على "معاني القرآن" ، ومنهم المستشرق فايل وبعض من اتّبعه، وهو كتاب كبير اشتمل على الكثير من التحليلات اللغوية و الأقوال النحوية للفراء وشيخه الكسائي ، ويظهر الاختلاف عما قاله البصريون جليا في جوانب خاصة من مناهج البحث وبعض المصطلحات" [32] ، وبهذا الكلام يتهم المستشرق فايل ومن تبعه بعدم الاطلاع على التراث العربي النحوي، ويرميه بقصور النظر، وعدم التريث في اصدار الاحكام .

ومن جهة يثبت وجود المدرسة الكوفية، ويثبت مسألة الخلاف بين المدرستين يقول:" أما عن وجود مذهبين مختلفين ظهرا في زمن الكسائي أو قبله فهذا لا يمكن أن ينكر"[33]، وقال ايضا وهو يتحدث عن كتاب الأصول لابن السراج " ولا يمكن لمن اطلع على ماقاله عن الكوفيين أن ينكر وجود خلاف حقيقي ابتداء من عصر الكسائي على الأقل"[34].

ب-الشبهة الثانية:

العديد من الدارسين من رأى أن المدرسة الكوفية اشتهرت برواية الشاذ والاتساع من الرواية، وقد اعتمد هذا الرأي مجموعة من الدارسين العرب المحدثين أمثال الأستاذ مهدي المخزومي[35] آخذين هذا الرأي من المستشرق ماستييون وقد اعتمدوا في هذا الرأي على مجموعة من الأقوال التي وردت في كتب اللّغة مثلاً ما جاء عن ابن سلام من أن الكوفيين كانوا يأخذون اللّغة عن العرب غير الفصحاء وهم من سكان العراق (الحطمة من عبد القيس)[36]، ومما جاء في هذا أيضاً وهو صريح قول ابن بكر بن السرّاج :" وهو وأصحابه (أي الفرّاء) كثيراً ما يقيسون على الأشياء الشاذة "[37].

ويجيب الأستاذ على هذه الشبهات بالدليل ويقول: "أما الولوع بجمع الغريب من اللّغة: وهو ما كان غريباً على عامة العرب لا على المولّدين فقط، فهذه ميزة امتاز بها بعض الكوفيين "[38] ومن الأمثلة على هذا ما ذكره الفرّاء من بعض لغات العرب (لغة بني الكعب بني الحارث)، التي ورد على لسانها قوله تعالى:" إن هذان لساحران" وهذه اللغة ، تسمى لغة القصر، والتي يامل فيها المثنى معاملة الاسم المقصور ، نقول " جاء هذان، ورأيت هذان، ومررت بهذان "[39] .

و لدينا دليل آخر مع دحض هذه المسألة أن سيبويه فيما نقله ابن جني كان يقيس على القليل ويترك الكثير[40].

أما بالنسبة للشاذ الذي اتهم به الكوفيون يقول الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح :"أمّا الشواذ التي قاس عليها الكوفيون أو جمعوها فلا بد أن ننبه من الآن أنها ليست الشاذ من القياس ، إنما هو النادر ؛ المسموع عن الفصحاء ، إلا أنّه انفردت باستعماله جماعة قليلة جدا منهم "[41]، ويعلل الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح لهذا الأخذ

بقوله " ثم إن الغرائب و الشواذ في الاستعمال وإن كانت من ضمن التنوع اللهجي في الغالب ، فليست على العكس ، كل التنوعات اللغوية اللهجية و غيرها غرائب وشواذ لأن في اللغة جزءً كبيرا من التنوع يسمع ولا يقاس عليه وليس غريبا بل أكثره مطّرد في الاستعمال"[42] ، ومما يؤكد صحة مذهب الاستاذ عبد الرحمن ما حكاه ابن جني في الخصائص و الذي اتناوله الدارسون من تقسيم الكلام الى مطرد و شاذ ، فقد جاء عنه " ثم اعلم أن من بعد هذا أن الكلام في الاطراد و الشذوذ على أربعة أضرب ، مطرد في القياس و الاستعمال جميعا ، ... ومطرد في القياس شاذ في الاستعمال ،...و المطرد في الاستعمال شاذ في القياس ... والشاذ في القياس و الاستعمال معا "[43] ولعمري إن ما حكاه ابن جني هنا من تقسيم الكلام ÷و الذي يريده الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح من أن التنوع اللهجي يفرض استعمال الشاذ و يطرح القياس المطرد كقول العرب" مكان باقل" سماعا منتشرا و القياس " مكان مبقل" . وعليه : فالكلام الذي رواه الكسائي و الكوفيون كلام عربي فصيح ، إلا أن العرب لم تكن تستعمله على درجة واحدة وهذا هو الذي اشار إليه ابن جي من قبل ، و يؤكد الأستاذ عبد الرحمن هذا قائلا" في كلام العرب بعض الكلام يسمع و لا يقاس عليه ... وهذه الأمور الدقيقة لم تتضح بلا شك في ذهن ما سينيون ومن تبعه"[44]، وهذا صحيح يجب اعادة النظر في كل ما نتلقاه وبخاصة إذا صدر عن مستشرقين حانقين على اللغة العربية والإرث اللغوي العربي .

ومن الأدلة التي يذكرها الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح حول الأخذ بالمسموع الشاذ ليعضد بها رأيه قوله:" اضافة الى ما ذكرناه عن ابن خير قوله من أنّ الأخفش وهو من البصريين قاس على المسموع القليل أو الشاذ فقد حكى السرّاج من أنّه اجاز أشياء لم يسمعها عن العرب، كقولنا:" إنّ في الدار جالساً أخواك" [45]، وقبل البصريون هذا ، فهذ الدليل الذي يذكره الاستاذ عبد الرحمن من أن البصريين قدحملوا لنا بعض اللهجات او اللغات التي لم تكن منتشرة ، وهذا دليل على أنه لم يكن خاصا بالكوفيين وحدهم .

ومن الأدلة التي يذكرها الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح على بطلان الشبهة ؛ المنهج النقدي الذي ذاع بين التلميذ وشيخه ، فقد كان كثيرا ما ينقد الفراء شيخه الكسائي ، كما كان الأخفش و المبرد يخالفان سيبويه في كثير كمن المسائل ، فهذا المنهج النقدي بين الفراء و الكسائي كان في رأي الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح من الأدلة على الكوفيين لم يكونوا يقيسون كلامهم على الشاذ ، ومن أقوى الأمثلة وأشهرها " مسألة العطف على
خبر إنّ قبل تمام الخبر " استنادا الى قراءة " إنّ الذين آمنوا والذين هادوا و الصابئون و النصارى"[46]، بعطف الصابئون بالرفع على اسم إن قبل مجيئ الخبر، و هذا قياسا على بيت ضابئ بن الحارث البرجمي[47]

فمن يكن أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب

، فقد قال الكسائي بعطف" قيار " على اسم ان قبل مجيئ الخبر " لغريب" ، أما الفراء فقد تنبه

إلى هذا الخطأ وقال بأنه لا يجوز إلا في المضمرات ،فقد حكي عنه (الفراء) :"لا أستحب أن أقول : إن عبد الله وزيد منطلقان ، وقد كان الكسائي يجيزه" [48] ، و عدم قبول الفراء لرأي شيخه الكسائي دليل على أن الكوفيين كان عندهم منج علمي دقيق مبني على النقد العلمي والتثبت

وعليه؛ لا يمكن أن يستدل هؤلاء بالشاذ لبناء قاعدة نحوية .

ج-الشبهة الثالثة والرابعة:

هو ذهاب المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون ومن تبعه من الدارسين العرب من أن "البصريين اهتموا بالقياس واستهانوا وابتعدوا عن السماع، وأن الكوفيين اهتموا بالسّماع وابتعدوا عن القياس وهم بذلك يشبهون الرواقيين" [49] ، يقول المخزومي:" النحو الكوفي كان أبعد ما يكون عن الأخذ بأسباب المنطق والتعلق بأساليب الفلاسفة"[50]، يقول الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح وهو يرد على هذه الشبهة بقوله:" الوسائل العقلية التي اخترعها العرب واعتمدوا عليها في تحليلهم وتفسيرهم للعربية هي رياضية في الجوهر استخرجها الخليل ولا ترجع الى منطق ارسطو البتّة، أما القول بأن الكوفيين أقاموا قواعدهم على الشواذ ولم يستعملوا القياس، فهذا يُكذبه الواقع وما جاء في كتبهم من استعمال القياس بكثرة بل أرى أنه أسرف فيه البعض، وكدليل على ذلك وجود كتاب للفرّاء يُعنوَن ب"الحدود" فكيف يؤلفون في الحدود وهم لا يستعملون القياس".[51]

والدليل الثاني الذي جاء به الاستاذ عبد الرحمن من أصل اللّغة الفرنسية حيث يقول:"والذي حصل من الوهم عند ماسنييون والمتبعين له عدم التفريق بين الشاذ في الاستعمال (Hopax) والشاذ عن القاعدة (Anomalie)، فقد استعملوا (Anomalie) الذي تعني الشذوذ عن القاعدة مكان (Hopax) والتي تعني الاستعمال الشاذ (استعمال قليل) [52] ، فترجمة هذه الكلمة أدى الى اللّبس عند هذا المستشرق والذي أدى به الى الحكم الخاطئ، فقال:" هذا التخليط بين النوعين من الشذوذ والنفور المزعوم من القياس هو الذي أدى الى هذا التوهم الذي جاءوا به " [53]. والملاحظ هنا أن الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح عاد الى اصل الكلمة باللغة اللاتينية ليرد على مزاعم المستشرق "ماسينيون" وبيّن أن " ماسينيون" نفسه قد أخطأ في فهم الكلمة المترجة فوقع الحكم خطأ ولم يتبين ، لأن هناك فرقا بين الشاذ في الاستعمال و الشاذ عن القاعدة ، فحينما تحدث النحاة عن الكسائي بأنه يميميل وأصحابه إلى القياس عن الشاذ، فهم "ماسينيون" ومن تبعه هذا خطأ ، فالشاذ الذي عناه النحاة أو السراج هو قياسهم على القليل وهو عربي فصيح مستعمل ، وفهموا(أي "ماسينيون و المستشرقون) من هذا الشاذ عن القاعدة لذلك وقعوا في الخطأ .

وقد قدّم الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح عدة أمثلة في كتابه خرج من خلالها أن القياس الذي استعمله الكسائي لا يشبه القياس المتبع عند البصريين يقول : "فيظهر من خلال هذه الأقوال أن الكوفيين وخاصة الكسائي كانوا يجيزون ما لا يجيزه الخليل وسيبويه ، ومعنى ذلك أن مثل الكسائي كان يقيس على ما لا يقيس عليه هذان العالمان، ويحتج الكسائي على ذلك بكلام العرب و أحيانا بكثرة ما يقيس عليه كما مر بنا من كلامه"[54] .

د-الشبهة الخامسة:

هو أن الذين اعتمدوا هذه الآراء اعتمدوا على كتاب الانصاف للأنباري ، واستنتجوا من خلاله أن الكوفيين ليس لهم ارث يقول الأستاذ الحاج صالح: "الذين اعتمدوا على هذا مخطئون، فكتاب الانصاف لا يمكن اعتباره مرجعا موثوقاً به لمعرفة هذا الخلاف ولا يمكن من خلاله استنباط هذا الحكم"[55].

وقد قدّم الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح ما يثبت رأيه في هذا مستعينا بآراء الأستاذ محمد خير حلواني، ومن الأمثلة التي يذكرها أن الانباري كان يخلط في المسائل بين البصريين والكوفيين ، وأنه كان لا يستقصي في نسبة الرأي الى صاحبه[56]، وقد أبان الاستاذ عبد الرحمن حاج صالح عن إعجابه بكتاب الاستاذ محمد خير حلواني – رحمه الله- وأيده في كثير من آرائه فيما يخص كتاب الانصاف ، وبخاصة فيما يتعلق بمن قدم حكما على الكوفيين ولم يرجع إلى كتبهم واكتفى بكتاب الانصاف ؛ من هؤلاء المستشرقون وبعض الدارسين العرب .

خاتمة :

كان الغرض من هذا العمل تبيّين وجهة نظر الأستاذ عبد الرحمن و موقفه من الخلاف النحوي بين المدرستين البصرية و الكوفيه ، وقد فتح المجال لنا لنعيد النظر في كثير من المسائل التي تبنيناها وأصبحت لدينا مسلمات ؛ من ذلك ما يشاع عن الكوفيين من اتساعهم في الرّواية واعتمادهم على الشاذ ، وقد بنيت هذه الاحكام عن قصر تقصي وسوء فهم ، و من خلال ما توصلنا اليه و ما رآه الستاذ عبد الرحمن م يلي :

- القول بعدم وجود مذهب كوفي لا دليل عليه .
- لا يمكن الاعتماد على كتاب الانصاف لمعرفة كل الخلاف الذي دار بين المذهبين.
- المنهج الذي سار عليه الكوفيون لا يختلف عن منهج البصريين.
- لكل مذهب آراء خاصة وطريقة في التحليل.
- اعتمادهما على القياس والسماع معاً.
- الولوع بالشاذ في الاستعمال لا يعد شاذاً في القاعدة.
- ما دعا اليه "ماسيتيون" وبعض المستشرقين حول ميل الكوفيين الى الشاذ تخليط ينم عن سوء نظر.
- ما دع إليه المستشرق " فايل " و"لوكونت" من أن المدرسة الكوفية لا وجود لها ما هو إلا تخليط وسوء نظر .
- الدعوة التي يقدمها الاستاذ الى التقصي عن آراء الكوفيين انطلاقا من كتبهم لا من كتاب الانصاف كما فعل الاستاذ محمد خير حلواني رحمه الله .

الهوامش

[1] معجم مقاييس اللّغة، لابن فارس، تح عبد السلام محمد هارون ، دار الكتب العربية ج2 ص 270

[2] مفردات ألفاظ القرآن الكريم الأصفهاني (مادة خلف ص 313 نقلاً عن اختلاف النحاة ثماره وآثاره)

[3] التعريفات ، الشريف الجرجاني، مكتبة رياض ، لبنان ، ط1 ، 1990 ص 113

[4] اختلاف النحاة ثماره وآثاره ص 3

[5] الكليات (معجم المصطلحات اللغوية)، أبو البقاء الكفوي، تح عدنان درويشو محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ،ط1995،2 ص 61.

[6] ينظر اختلاف النحاة ثماره وآثاره ص 20.

[7] المدارس النحوية، شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ص96 ، ويرى شوقي ضيف أنّ الأخفش بعدما توفي

سيبويه ، رحل إلى بغداد لملاقاة الكسائي ومناظرته انتقاما لشيخة سيبويه ، فلقي الترحاب من الكسائي فبقي ببغداد وأخذ عنه الكسائي أولا كتاب سيبويه ثم أخذ الفراء عنه ، ومن هنا بدأ الخلاف بين المدرستين يتسع ، لذلك جاز لنا أن نقول إن الخلاف الذي دار نشأ داخل المدرسة البصرية ثم انتقل وتزعمه الكوفيون بعد ذلك ، ينظر المدارس النحوية شوقي ضيف ص 100.

[8]أسرار العربية ، ابو بكر الأنباري، تح يوسف هبود، دار الأرقم ، بيروت ، لبنان ، 1999، ص 65.

[9] حاولنا قدر المستطاع الاختصار ،لأنه لابد علينا من الاشارة الى المدينة وكيف افتتحت ، يراجع : معجم البلدان ، ياقوت الحموي ج1 ص309 وفتوح البلدان ، أحمد البلاذري ، تح رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ج2ص295.

ينظر تاريخ الطبري ،أبو العباس الطبري ، ج3ص 590، وينظر فتوح البلدان البلاذري ج2 ص396 . [10]

كتاب الحيوان ، أبو عمر الجاحظ، تح محمد الساسي، القاهرة ج 2 ص 284. [11]

[12]طبقات فحول الشعراء ،الجمحي محمد بن سلام(ت232ه)، تح: محمود محمد شاكر ،ط1،مطبعة المدني القاهرة ،1974م،ص12

[13]نشأة النحو و تاريخ أشهر النحاة ، محمد الطنطاوي دار المعارف ، مصر ،ط2 ،دت ، ص27، ويراجع ، تاريخ النحو العربي ، نشأته وتطوره ، صلاح راوي ، دار غريب القاهرة ، ط1 ، 1403، ص 86.

[14]المدارس النحوية ، خديجة الحديثي ، ص66

[15]المدارس النحوية شوقي ضيف ، ص57.

ينظر فتوح البلدان للبلاذري ج 2 ص 300، و تاريخ الطبري ج3ص 598.[16]

المدارس النحوية شوقي ضيف ص 153. [17]

[18]المدارس النحوية ، مهدي المخزومي ،دار الفكر ، مان ، ط2002، ص31.

[19]المدارس النحوية، شوقي ضيف ص 153

[20]المرجع نفسه ، ص 153

[21] اعتمدنا في هذا على مجموعة من الكتب ، المدارس النحوية ، مهدي المخزومي ص17-27، والمدارس النحوية شوقي ضيف ص 46-57، ص 80-94 ص ، المدارس النحوية ، التواتي بن تواتي ص ، من تاريخ النحو الطنطاوي ص 64-[21]

[22] لقد اشرنا الى خصائص الكوفيين مثلما تحدث عنها الدارسون واشرنا الى قولهم بان الكوفيين اعتمدوا على الشاذ والقليل و لنادر ، ولم نرد هنا ان نبيّن أن نسب الشاذ والقليل و تالنادر غير معروفة لديهم فلم نرد التعليق ههنا ، وتركنا الأمر للأستاذ عبد الرحمن حاج صالح ليرد ، لأن الشاذ الذي ذكره القدامى له معنى غير الذي يفهم عندنا ، وسنبيّن هذا ان شاء الله في الشبهات و الردود .

[23] منطق العرب في علوم اللسان ، عبد الرحمن حاج صالح ، موفم للنشر ، سنة 2012 ، الجزائر ، ص 256.

[24] منطق العرب في علوم اللسان ، عبد الرحمن حاج صالح ، ص 255 ، نقلا عن مقدمة الانصاف لفايل ليدن ، سن،1913 ص 390.

[25] منطق العرب في علوم اللسان ص 256، نقلا عن كتاب ابن قتيبة وآثاره للمستشرق لوكونت ص 389.

[26]منطق العرب ، ص 257

منطق العرب في علوم اللسان ، ص 257. [27]

[28] منطق العرب في علوم اللسان ص257.

[29] نفسه 257

نفسه ص256، نقلا عن البيان والتبيين ج4 ص44. [30]

[31] منطق العرب في علوم اللسان ص 256، ويحيل على كتاب الأصول لابن السراج ج2 ص 37.

منطق العرب في علوم اللسان ص 256. [32]

[33] نفسه الصفحة نفسها .

السابق ص285. [34]

[1] ليس مهدي المخزومي من وصف الكوفيين بهذا ، بل لا نغالي أن نقول كل الدارسين العرب وصفوا الكوفيون بالاستاع في الرواية وبناء القاعدة على البيت والبيتين ،

من امثال هؤلاء شوقي ضيف المدارس النخوية ص 159 160، ومهدي المخزومي ، المدارس النحوية ، خديجة الحديثي ص

[36] طبقات فحول الشعراء ،ابن سلام الجمحي ، ص148.

[37]لأصول في النحو ، أبو بكر بن السراج ، تح عبد العزيز الفتلي ،ج 2 ص 257.، والنص يشابهه اورده شوقي ضيف ، المدارس النحوية ص 160

[38] منطق العرب في علوم اللسان 259.

[39] ، لغة القصر حكاها الفراء ، وأشار اليها سيبويه ، والأاية من سورة طه ، وقد اختلف الدارسون في تخريجها ، ينظر في تخريجها الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي ، وينظر أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك ، ابن هشام الانصاري ، تح محمد محي الدين عبد الحميد (باب الأسماء الستتة)ج1 ص 85،

[40] ينظر الخصائص ج1 ص 149(باب القياس على القليل وترك الكثير).

[41] منطق العرب في علوم اللسان ، عبد الرحمن حاج صالح ص 261.

[42] فسه ص 261

[43] الخصائص ج1 ص 137.

[44] منطق العرب في علوم اللسان ص 270

[45] نفسه ص 271، والنص اورده عن ابي بكر بن السراج في كتابه الأصول .

[46] الآية 69 من سورة المائدة .

[47] منطق العرب ص 266، ويراجع البيت ذكره ابن هشام في اوضح المسالك على الفية ين مالك ج1 ص 252.، وقد تحث عنه الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد طويلا في الهامش ، وقال بأن الفراء قد اعترض على رأي شيخه الكسائي وقال بأن هذا لا يجوز إلا في الاسماء المبهمات .

[48] نفسه ص .266

[49] منطق العرب ص 264

[50] مهدي المخزومي ، المدار س النحوية ص 380.

[51] منطق العرب ص 265.

[52] (ينظر La rousse)

[53] (بتصرف ص 266)

[54] منطق العرب ص 269، وقد قدم الاستاذ عبد الرحمن عددا كثيرة من امثلة القياس عند الكسائي ص 296/268/267.

[55] نفسه ص 273/272.

[56]محمد خير حلواني كتاب الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الانصاف ص193/169/168.